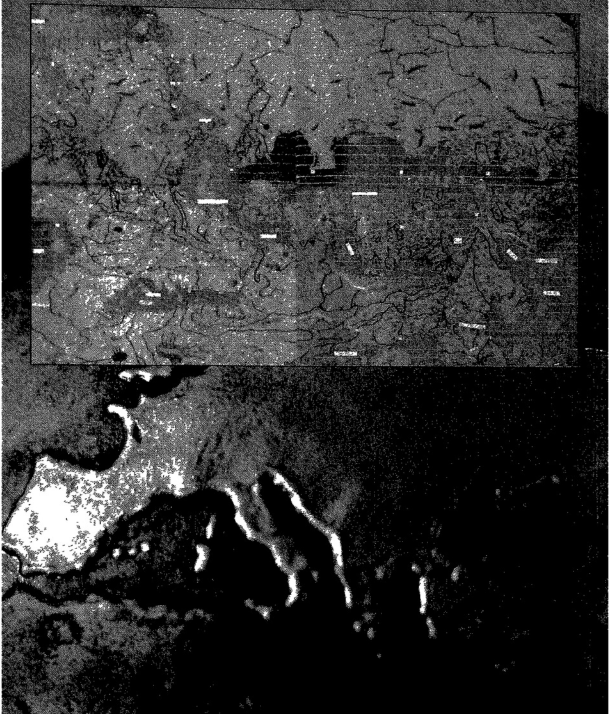
تصوّرات البحر الأبيض المتوسط

المتوسّط الإيطالي

فرانكو كاسانو
فينشينزو كونسولو



THALASSA

منشورات البحر الأبيض المتوسط

المتوسّط الإيطالي

فرانكو كاسّانو

فينشينزو كونسولو

THALASSA

تصورات البحر الأبيض المتوسط

برنامج أبحاث بإشراف البيت المتوسطي لعلوم الإنسان

منسق البرنامج : فرانسوا سيينو
سكرتيرة التحرير : جيزيل سايماندي
منسقة النسخة العربية : ماري تريز زهر

رعى البرنامج كل من :
الاتحاد الأوروبي
وزارة الخارجية الفرنسية
المؤسسة الأوروبية للثقافة
مؤسسة رينيه سايدو للعالم المتوسطي
منطقة بروفانس آلب كوت دازور
مقاطعة بوش دي رون

شكر خاص لمؤسسة الملك عبد العزيز في الدار البيضاء
وللجامعة اللبنانية في بيروت لاستقبالهما

الغلاف :
خارطة محمد الإدريسي وهو جغرافي عربي توفي سنة ١١٦٦ .

تم نشر هذه المجموعة أولا باللغة الفرنسية في
دار ميزونوف إي لاروز Maisonneuve & Larose
أما الترجمة إلى العربية فهي بالتعاون مع
مؤسسة كونراد أديناور وتحت إشرافها

Konrad
-Adenauer-
Stiftung

تـــصــــوّرات
البـحـر الأبـيـض المـتـــوسط

باشراف تييري فابر، روبير إلبير، غريغور مايرينغ

المتوسّط الإيطالي

فرانكو كاسّانو

فينشينزو كونسولو

THALASSA

فرانكو كاسّانو / فينشينزو كونسولو

المتوسط الإيطالي – بيروت : منشورات تالاسا ٢٠٠٣

www.thalassa-editions.com

Printed in Lebanon

DYNAMIC GRAPHIC
ISBN: 9953-422-43-5

فرانكو كاسانو

ضدّ كلّ الأصوليات: المتوسّط الجديد

ترجمه عن الفرنسية بسام حجّار

مـن الـوحـدة إلى «مـكـان تحت الشمس» : «رومـا الثالثة» ومتوسّط الإمبريالية

تغدو إيطاليا دولةً في فترةٍ متأخرة جداً، أي في مطلع النصف الثاني من القرن التاسع عشر (١٨٥٩-١٨٦٠)، وتستقطب مسألة الوحدة القومية الاهتمام السياسي والثقافي لوقتٍ طويل. تتوصّل إيطاليا إلى الوحدة إثر مرحلة طويلة من الانقسام، من دون أن يكون لها أي وجود مستقلّ على الساحة الدولية، فضلاً عن «تأخّر» خطير قياساً بالبلدان الأوروبية الأقوى التي، فيما خلا ألمانيا، اجتازت القرون السابقة على متن عبّارات الدول الأمم الضخمة وباتت قوى استعمارية وإمبريالية. هذا «التأخر» جعل اهتمام المثقفين الإيطاليين في القرن التاسع عشر، وحتّى أرفعهم شأناً، كليوباردي ومانزوني وفوسكولو وفيردي، مركّزاً على موضوعة «انعتاق» إيطاليا من السيطرة الأجنبية.

حتّى مطلع القرن، الذي يُفتَتَحُ إثر إنجاز الوحدة القومية، غلبت عليه، في بداياته، على الأقلّ، حين تولّى ما سمّيّ باليمين التاريخي الحكم (١٨٦١-١٨٧٦)، هموم بناء الدولة القومية وتنظيمها، والمشكلات المعقدة لتوحيد المملكة، وبالدرجة الأولى بروز تفاوت حاد بين مستويات النموّ وظروف العيش بين مختلف مناطق البلاد، واكتشاف وجودِ «مسألة جنوبية». في هذه المرحلة الأولى من توطيد الاستقرار غلبَ أسلوب اليمين المتحفّظ والحذر، ذلك أنه لا يميل كثيراً إلى تأجيج الصراعات وإلى تبنّي مشاريع من شأنها، على الصعيد السياسي الدولي، أن تصطدم بالبلدان التي تفوق إيطاليا قوةً.

بيدَ أن المسألة ليست مسألة توقيت، ذلك أن موضوعة المتوسّط هي في نظر الدولة الجديدة مسألة لا بدّ منها، هي عقدة لا بدّ أن

تـظـهـر عـاجـلاً أم آجـلاً. وكـمـا لاحـظ فـردريك شـابـو، أحـد أبـرز المختصّين في السياسة الخارجية الإيطالية، إنّ النموّ في جنوب مملكة البييمونت هو الذي يفرِض على الطبقة الحاكمة إطاراً جديداً للمرجعية لا يمكن أن يصاغ بعد الآن بمصطلح أوروبا أو شمال أوروبـا. وعلـى الـرغـم مـن تحفّظ ونـفـور بعض الطبقة الحاكمة البييمونتية القديمة (بالبو، دوراندو، دازيغليو) الذي يخشى إضفاء الطابع الجنوبي على الدولة، فرضت عمليات الضمّ المتتالية، أولاً الجنوب ومن ثمّ روما، أن يُنظر إلى المتوسّط بنظرةٍ أخرى. وما سيسود، ولو تدريجاً، بدءاً بتولّي اليسار الحكم (١٨٧٦)، هو خيار ماتزيني الذي سيسعى لصوغ تأويلٍ جديد لمهمّة روما الكونية في عصر الأمم. وفي فقرة بالغة الدلالة، سيرسم ماتزيني الخطوط العريضة لرسالة إيطاليا المتوسّطية ودور روما الرئيسي :

> «كفّوا وانظروا، إلى أبعد ما يحملكم البصر، إلى الجنوب، ملتفتين إلى المتوسّط. وسط هذا الاتساع سوف تتراءى لأبصاركم، كما لو كنتم في عرضِ محيط، نقطة معزولة، علامةً على عظمةٍ نائية. اركعوا وتعبّدوا : هناك ينبض قلب إيطاليا : هناك ترقد روما بأبّهةٍ سرمدية.»

هذه الفقرة من أقوال ماتزيني توضح كيف يدخل المتوسّط في الاعتبارات السياسية والثقافية الإيطالية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر : إنّه مجال توسّع «روما الثالثة». فبعد الإمبراطورية والكنيسة الكاثوليكية، روما مدعوة إلى موعد ثالث عظيم، إلى حقبة تفوّق جديدة لا تستطيع الدولة الجديدة أن تبرّرها من دون الوقوع في الشططِ الانتهازيّ التبسيطي. من المؤكّد أن روما هذه، في نظر ماتزيني، ينبغي أن تكون عاصمة النزعة الجامعة «للفكر الحرّ وللعلم»، ولكن سرعان ما يتبدّى أن التجربة الأيسر هي المغامرة الاستعمارية. فمن المحتّم، إذاً، على المتوسّط أن يكون، مرّةً أخرى، بحرنا (Mare Nostrum) بالمعنى الحصريّ للعبارة، أي حقلاً لتجارب النزعة التوسّعية لإيطاليا الجديدة واختباراتها.

ما سيسهم أيضاً في تدعيم هذا المنعطف هو الضغوط المتضافرة لمشكلتين تواجهان الدولة الجديدة : المسألة الاجتماعية من جهة (بروز الحركات الاشتراكية، ولكن أيضاً مشكلات الجنوب التي نجمت عن مختلف السياسات التي أضرّت به بإيثارها الصناعة في الشمال)، ومن الجهة الأخرى، هناك المسألة الدولية التي تفرض، على نحو بديهي، أن يكون تخطي الهامشية في السياق الأوروبي مرتبطاً أيضاً بتغيير موقع إيطاليا في الحوض المتوسّطي. والواقع أن الدولة الجديدة أدركت أنَّ من بين الأوجه العديدة لموقعها المتدنّي والهامشي هناك أيضاً غياب أي شكلٍ من أشكال الحضور في البحر الذي كانت إيطاليا راسخة الجذور فيه سواء جغرافياً أو تاريخياً. ذلك أن القوى الأوروبية الأعرق تحتلّ هذه الساحة، وفي مقدّمها بريطانيا العظمى بإمبراطوريتها المحيطية الهائلة، ولكن أيضاً فرنسا التي تمكّنت من توطيد حضورها فيه عبر تدعيم مطامعها التوسّعية في ظلّ قوة مدنية وعسكرية لا يستهان بها. ففي الوقت الذي تلتفت فيه الدولة الجديدة إلى المتوسّط وتمنّي نفسها بمستقبلٍ عظيم، تكتشف أنها مقيّدة بسياسة التوسّع الاستعماري التي تحدّ من طموحاتها.

ما عاد التوسّع الاستعماري علّة خاصّة بإيطاليا ذلك أن الدولة القومية الأوروبية لطالما كانت في الوقت نفسه قوةً استعمارية كبرى. أمّا السمة الخاصة بإيطاليا على هذا الصعيد فتكمن في التأخّر في إنجاز الوحدة، والتفاوت الكبير بين الخطاب والأطماع من جهة، وقسوة النزاع الذي يترتّب عليها حلّه، من جهةٍ أخرى. ذلك أن بروز دولتين قوميتين جديدتين في قلب أوروبا لا يمكن، بأية حال، إلا أن يؤدي إلى مشكلات حقيقية في التوازن السائد. وهذه المشكلات بالنسبة لإيطاليا، تتمثّل، من جهة، بمشكلة الحدود الشمالية، أو ما يسمّى بالأراضي غير المحرّرة بعدُ (الأراضي «غير المنضمّة»)، ومن جهةٍ أخرى، بمشكلة الحدود الجنوبية، والأهمية المتعاظمة على المستوى الدولي للدور الذي يؤدّى تجاه إفريقيا الشرقية والساحل الجنوبي الشرقي للمتوسّط، وهو توسّعٌ مجزٍ برأي

البعض، حتّى إن كان ذلك فقط من باب استخدامه أداةً ترفد موجات الهجرة لصدّ وتخفيف المشكلات الاجتماعية في الجنوب على الأقلّ.

يُباشر برسم هذه السياسة من قبل السياسة «الفاعلة» والمتشدّدة لحكومات (١٨٨٧-١٨٩١ و ١٨٩٣-١٨٩٦) فرنشيسكو كريسبي (صقلي وغاريبالدي النزعة)، ثمّ تستعاد، وإن بتقطّعٍ ومراجعة، بين نهاية القرن ومطلع القرن الجديد، بفعلِ دورة الحروب الاستعمارية التي، وإن كانت تندرج في سياقٍ تخلّلته الهزائم، تؤدي في مطلع القرن العشرين إلى التوسّع في إفريقيا الشمالية، وإلى غزو ليبيا وإنشاء الدوديكانين، مع حضورٍ جديد في بحر أيجه. تبحث إيطاليا عن مكان لها تحت الشمس وتحظى به باتجاه اليونان وسواحل إفريقيا الشرقية والشمالية، تارةً بالصراع وطوراً بالاتفاق مع القوى الأوروبية، أي إنكلترا وفرنسا وأسبانيا. لقد أعيد اكتشاف المتوسّط ولكن فقط في إطار عدواني والرجوعُ إلى ماضٍ عظيم، إلى روما الإمبراطورية، إلى البندقية والجمهوريات البحرية، ليس سوى عنوان للمطالبة بحقوقٍ قديمة على بحرٍ لم يعد بحرنا اللاتيني، بل بات يحتلّه آخرون.

في الاحتفال بذكرى جيوسيبي غاريبالدي الذي جرى في العام ١٨٨٢، كان جيوسوي كاردوتشي، الشاعر الإيطالي الأبرز تأثيراً في نهاية القرن التاسع عشر، يرى إلى هذا التوسّع بوصفه نتيجة فيزيولوجية لا بدّ منها لإنجازات الألفية (Mille) وتحقّق وحدة البلاد:

> «وإذ ذاك عبرت الكتائب الحمرُ شبه الجزيرة مظفّرةً؛ وأصبحت إيطاليا حرّة، حرّة كلّها، بجبالها وجزرها وبحرها. ويسط العُقاب الروماني مجدداً جناحيه بين البحر والجبال، وأطلق صيحات بهجة جهيرة أمام السفن التي كانت تمخر بحرية مياهَ المتوسّط الإيطالي للمرّة الثالثة.»

يقع الاهتمام الشعبي بالمتوسّط إذاً وسط المغالاة في التشدّق

بـ «الرسالة الحضارية»، وفي معمعة تحرّك الجنود على إيقاع الموسيقى العسكرية والأناشيد، ولا يشتمل على أي فضول حقيقي حيال ثقافة الأراضي التي سيجري غزوها وضمّها للإمبراطورية. ذلك أن حال التأخّر، تأخّر الإمبراطورية حتّى، وتأخّر المغامرة الاستعمارية، التي أكسبتها نبرةً تراجيدية وكوميدية في آنٍ معاً، جعلت من غير الممكن حتّى البدء بتطوير تقاليد في الأسفار وفي الدراسات قادرة على تجاوز النزعة الأكزوتيكية السطحية بحيث تضاهي تلك التي ترسّخت في البلدان ذات التقاليد الاستعمارية العريقة كبريطانيا العظمى (سوف ينشأ علم الأنتروبولوجيا – الإناسة – في إيطاليا مع أرنستو دي مارتينو "De Martino Ernesto" في مطلع النصف الثاني من القرن العشرين، وسوف يكرّس لدراسة مناطق الجنوب الداخلية وأساطير جنوب إيطاليا). فالإيطاليون حديثو العهد بمغامرةٍ مرتجلة تستخدم أمجاد الماضي لكي تمتلك القوة والمستقبل اللذين لا تملكهما.

لكن، في الأثناء، لم يكن القبول بالمشروع الاستعماري مشوباً بأي تردّد، بل كانت الحماسة له كبيرة، حتّى في أوساط مثقفين مرموقين. ذلك أنّ جيوفاني باسكولي (Giovani Pascoli) قد أطلق، لمناسبة «عملية ليبيا»، عبارته الشهيرة التي لاقت رواجاً كبيراً في إيطاليا : «البروليتارية العظيمة قد استيقظت»، مقدّماً بذلك المثال الأوضح على تحوّل المصطلحات الاشتراكية إلى القاموس القومي، وتحوّل صراع الطبقات إلى صراعٍ بين الأمم. وكذلك الأمر دانونزيو (d'Annunzio)، الشاعر الأبرز تأثيراً في مطلع القرن العشرين، الداعي إلى خوض كلّ تجربة مثيرة ومشوّقة، الذي لن يخلف بموعده إذ يهدي أبطال إفريقيا أناشيد المآثر عبر البحار. أما ألفريدو أورياني (Alfredo Oriani) فكتب، قبل ذلك، في «حتّى دوغالي» (١٨٨٩) صفحاتٍ بالغة الدلالة حول الرسالة الحضارية للدولة الجديدة :

«إنّ خلاصَ إفريقيا، ليس بالتأكيد خلاص الأفارقة

الحاليين، بل استبدال حياةٍ بحياةٍ أرقى مما يعيشونه.»

ولكن

«من أجل الدخول إلى وسط إفريقيا، يتعيّن احتلال كلّ إمبراطورياتها الساحلية : ليس لأوروبا، ويخاصّة أممها المنفتحة على المتوسّط، مهمّة أخرى.»

أما إيطاليا نفسها، فلأنها

«كانت لمرّتين مركز العالم، لا تستطيع، وقد بُعِثَت اليوم كأمّة، أن تخلف بهذه المهمّة المتمثّلة بنشر الحضارة في كلّ مكان، ما يجعل المآسي التي لا بدّ منها بريئةً من أي ذنب.»

فالواجب واضحٌ جليّ :

«يجب أن نعمل على إنجاز القيامة الثالثة لإيطاليا.»

من جهةٍ أخرى، تبقى المشاريع الاستعمارية في مطلع القرن العشرين وثيقة الصلة بـ «حرب الاستقلال الرابعة» التي من شأنها أن تؤدي إلى «تحرير» ترانتو (Trente) وتريستا (Trieste) الرازحتين تحت النير النمسوي. وقد نجم التدخّل الإيطالي في الحرب العالمية الأولى، الذي عارضه الكاثوليك والإشتراكيون ورئيس الوزراء آنذاك، جوفاني جوليتي (Giovani Giolitti)، من التعبئة المذهلة للشارع التي قام بها أنصار التدخّل الذين شوهدَ في صفوفهم الأولى، إلى جانب غابرييلي دانونزيو، كثير من المثقفين الإيطاليين الكبار. ففي ختام حرب مظفّرة، يقضي المنطق القومي بأن تستعاد كلّ الأراضي الإيطالية أو تلك التي تعتبر كذلك. في أيلول/سبتمبر ١٩١٩، يطلق دانونزيو، الذي لا يزال من رجالات الصفّ الأول بعد خروجه سالماً من قصّةٍ مأسوية، «عملية فيومي»، متزعماً النقاش حول «الانتصار المشوّه» الذي يشكّك في السلام الذي وقّعَ للتوّ في باريس. وسوف تمثّل الحرب وما تبعها من أحداثٍ أدّت إلى صعود الحركة الفاشية (تشرين الأول/ أكتوبر

١٩٢٢) هزيمةً لكلّ القوى (ليبرالية، اشتراكية، كاثوليكية) التي كانت تحدّ من الأطماع الإمبريالية. ذلك أن القوى التي تولّت السلطة في إيطاليا وضعت مخططاتٍ كبرى ؛ وهي تؤمن برسالتها الحضارية الخاصّة، وسوف تسلك هذه الطريق حتّى النهاية.

في هذا الإطار الجديد، يعود المتوسّط إلى صدارة الاهتمام لأن برنامج التوسّع الاستعماري وإعلان الإمبراطورية هما محورا السياسة الخارجية للحكومة الجديدة. هذا فضلاً عن كون موسوليني مرجعاً لحركة سياسية ثقافية تنشأ في مطلع القرن، وتنتقل، عبر نزعتها التدخلية، لتجري تحويلاً لعددٍ من الحجج الراديكالية للميراث الاشتراكي (الفوضوية النقابية) في تبنيها لنزعة قومية عدوانية في حالِ نزاعٍ مع القوى العظمى. ويخوض هذا النزاع بين الإمبرياليات صفّان من الدول، فمن جهة تقف بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة الأميركية، أي القوى العظمى «الديموبلوتوقراطية» (أي الديمقراطيات التي تستخدم ثرواتها كأداة نفوذ)، ومن الجهة الأخرى، تقف إيطاليا، «الأمة البروليتارية»، التي تصدّها الإمبراطوريات الاستعمارية الكبرى، من غير وجه حقّ، لأنّ هذه لا تنظر بعين الرضا إلى حماسة الوافد الجديد. تستعيد الفاشية وتستكمل حتّى النهاية سياقَ استلهام الماضي المجيد الذي بدأ بالبروز مع أولى المغامرات الاستعمارية. ويغدو التذكير بعظمة روما الإمبراطورية مركز التطلّعات الجديدة في رؤيةٍ للمتوسّط بوصفه، كلّه، مجالاً لاتينياً. وكما أسلفنا يغيب عن هذا التوجّه أي فضول بشأن الشعوب التي يؤمّل بإخضاعها، وكأنّها مجرّد جموعٍ لا وزن لها في صراعٍ يدور بين الدول الأوروبية، وهي وحدها الفاعلة في صنع التاريخ. وكما غدت طرابلس (الغرب) في أغنيةٍ شهيرة «أرض الحبّ الجميلة»، صارت الطلعة السمراء (Facetta nera) هي وجه فتاة حبشية تنتظر، مرتعشةً، الجندي الإيطالي، زعيمها وملكها. وكعادتها تترافق الرسالات الحضارية ليس فقط مع سقوط القتلى، بل مع الغنائم والضحايا. لذا يبدو الخلل تاماً في ظرفٍ تُفعمُ فيه حماسة الخطاب

صدورَ الغالبية العظمى من الإيطاليين بالكبرياء القومي. إنّ المرجعية التي تتردّد في روما على نحوٍ هجاسيّ تحيل الميراث اليوناني إلى رحيلٍ هائل غايته بلوغ الأوج مع زهو الإمبراطورية وعبقرية روما. إنّ استرداد الميراث اللاتيني يعتبر في لُبِّ ما سمّيَ آنذاك بـ «تقديس السياسة». والفنّ الذي استلهمه نظام الحكم، ومنه في المقام الأول التخطيط المُدني والعمارة، زاخرٌ بهذه المرجعيّات، إذ أطلقت على المدن الجديدة التي شيّدت في المناطق المحسّنة، أسماء واضحة في دلالتها (لاتينا–ليتوريا، ساباوديا، إلخ...). وخضعت، في السياق نفسه، قراءة التراث الروماني إلى تبسيط أحادي لكي يُجعَل منه سنداً لأطماعِ دولة قومية لها تطلّعاتٌ إمبراطوريةٌ كبرى. في ظلّ هذا التبسيط الخطير، تبدو الحماسة موجّهةً بكليّتها نحو الغزو، والروحية القتالية، وتلعب دوراً وظيفياً للإسهام في أمجاد الدولة التوتاليتارية الجديدة (الحِزَمُ – الروابط – كانت أيضاً رمزاً رومانياً). حتّى خلق الحضارة الذي يقوم على الحقّ، كتقنية عقلانية للتوسّط والتحكّم بالنزاعات من شأنه أن يربط بين ممارسة السلطة ومراعاة الأصول، يصبح في آخر الأمر، وفعلياً، مجرّد عنوان للسعي وراء تفوّق ما والمطالبة به. وحتّى الطابع الكوسموبوليتي المتعاظم للإمبراطورية الرومانية، وعدم قابليتها لأن تختزلَ بترسيمات الدولة الأمّة، والتأثير الذي تلقته من الثقافة الهلينية كما من سعة ولاياتها، والمرونة التي أبداها الرومان مراراً لتنظيمِ مجالهم (منح المواطنية، الاعتراف بالتقاليد المحلية، إلخ...) تبقى، هذه كلّها، ثانوية إزاء تمجيد ملحمةَ شعب الفلاحين والجنود القادرين على غزو العالم والسيطرة عليه لقرون عدّة. وتسقط النزعة الكوسموبوليتية الجامعة التي وجد فيها ماتزيني، هو نفسه، سبباً للراهنية المحتملة لروما، في أفقٍ محدود حيث تغدو تجربةٌ عظيمةٌ ومعقّدة أداةً لإضفاء الشرعيةِ على إمبريالية متأخّرة. إنّ الطابع الأحادي الجانب لهذه الآفاق الذي يُفقِرُ مفاتيح قراءة التراث الروماني، سوف يلقي بثقله طويلاً، كقالبٍ من الإسمنت، على صورة روما.

إنّ بارجة هذه المحاولة، المنطلقة من المرافىء الإيطالية في الثلاثينات سوف يكون مصيرها الفشل الذريع، بسببٍ من تأخّرها المزدوج سواء كان ذاك الذي أسلفنا ذكره، أي تأخرها إزاء الدول الأوروبية الأخرى، أم تأخرها إزاء عصر الاستعمار نفسه الذي ستكون نهاية الحرب العالمية الثانية هي علامة نهايته بالذات.

بيدَ أن المتوسّط ليس فقط ذاك الذي صاغته الفاشية : فثمة مجموعات صغيرة من المثقفين والمهندسين والفنانين والكتاب انصرفت في الثلاثينات لاستكشاف سبلَ مقاربة أخرى للمتوسّط، واكتشاف ثقافته ونوره وأساطيره الهاجريّة. فالنقاش حول العمارة الذي افتتحه لوكوربوزييه Le Corbusier (وهو موثّق من قبل بينيديتو غرافانيولو Benedetto Gravagnuolo في كتاب صغير فائق الأهمية)، كما أعمال الأخوين ديشيروكو De Chirico، وخاصّةً العبقرية المتعدّدة الأوجه لأصغرهما، ألبرتو سافينيو، تشير إلى سبيلٍ مختلف ليس البحر فيه نطاقاً للغزو، بل هو معلم ذكاء :

> «فائدة البحر. فائدة «مباشرة». أمّا الفائدة غير المباشرة فعظيمة القدر ماثلة منذ آلاف السنين. وهي تصقل عبقرية البشر. قارنوا ذهنية أهل البحر بذهنية سواهم. وفائدته أن يسيّر الذهنية. يجعلها تنتقل من جهةٍ إلى أخرى، من شعبٍ إلى شعب.»

كلمات نخبة للنخبة، كلمات سوف تغدو ثمينة فيما بعد، أي في السنوات العشر الأخيرة من القرن.

المتوسّط ما بعد الحرب (العالمية) الثانية : الشيطان المعادي للحداثة

يتميّز المشهد الذي يفتتح النصف الثاني من القرن العشرين بانقسام العالم إلى دائرتي نفوذ، انقساماً صارماً يحول، وخاصّة فيما يعني بلداً خارجاً من الحرب مهزوماً، دون انتهاج سياسة

خارجية مستقلّة. وإيطاليا هي إحدى تلك البلدان التي تشكّل الجناح الجنوبي لحلف شمال الأطلسي، على حدود الإمبراطورية السوفياتية والبلدان العربية، في منطقة حسّاسة جداً تودّ الولايات المتحدة أن تبقيها (باعتبار أن مقر قيادة المنطقة الجنوبية لحلف شمال الأطلسي قائم في نابولي) تحت سيطرتها التامة، وذلك برغم وجود أكبر الأحزاب الشيوعية الغربية فيها. فعلى الرغم من أنها تقع في وسط الحوض المتوسّطي، تجد إيطاليا نفسها مرغمةً على اتباع سياسة خارجية مرتهنة بالكلية للخيارات الأطلسية. فهي إذاً سياسة خارجية خجولة وتكون غالباً شبه خفية وسرية إذا وجدت أصلاً، نظراً لسعي الحكومات الإيطالية المتعاقبة للحفاظ على علاقات حُسْنِ جوارٍ مع البلدان العربية.

الواقع أن وجهاً من وجوه الميراث الكاثوليكي يبدي اهتماماً ملحوظاً بالمتوسّط، وذلك منذ عهد مؤسّس حزب الشعب، الصقلي، الدون لويجي ستورزو، حتّى جيوجيو لابيرا – عمدة فلورنسا في الخمسينات – الذي ما كان يخفي معارضته للنزعة الأطلسية التي تطالب الحكومات الإيطالية بتبنيها.

غير أن كلّ محاولة للاضطلاع بدور مستقل وللتعاون مع بلدان الضفاف الجنوبية يُنظَر إليه بعين الارتياب، كالانتقال إلى موقفٍ حيادٍ مؤيّد للعرب الذي لا يلقى استحساناً ويعتبر سابقة بالغة الخطورة على التوازن الجيوسياسي للمنطقة. وسوف نشهد في مطلع الستينات نهاية مفاجئة للطموحات السياسية لفنفاني (Fanfani) كما الطموحات الاقتصادية لأنريكو ماتيي (Enrico Mattei)، رئيس المؤسسة الوطنية للهيدروكاربور (ENI).

مما لاشك فيه أن وفاة أنريكو ماتيي، الذي قتل في حادث انفجار طائرته الخاصة بعيد إقلاعها من أحد المطارات الصقلية، شكلت حدثاً دراماتيكياً في حدّ ذاته. وهناك فرضية يجري تداولها اليوم، على نحو معلَن، حول وفاة أنريكو ماتيي تقول إن المافيا قد تكون ضالعة في مقتله بسبب مصالح اقتصادية سياسية أضرّت

بها سياسة ماتيي القائمة على عقد اتفاقات مع الدول العربية، وهي سياسة مستقلة تماماً عن مصالح كارتل الشركات النفطية. هذا علماً بأن المافيا لطالما لعبت دوراً محدداً ومعلناً، في فترة ما بعد الحرب هذه، لضمان المصالح الأميركية في المنطقة، منذ الحثّ على استقلال صقلية في السنوات الساخنة التي أعقبت الحرب مباشرةً، في الوقت الذي كانت الولايات المتحدة تخشى فيه فوز أحزاب اليسار في الانتخابات.

ولكن مع حلول سنوات الازدهار الاقتصادي المفاجىء والتحول الكبير الذي شهده المجتمع الإيطالي بين النصف الثاني من الخمسينات وبين عقد الستينات، برزت صورة مختلفة، أكثر وضوحاً ودقّة، للمتوسّط؛ صورة سلبية تميل إلى وسمه بالمكان الذي ينبغي أن يبتعد عنه كلّ من يسعى لأن يكون حديثاً وليبرالياً وغربيا بما للكلمة من معنى. لم يعد المتوسّط مجالاً يُستَحسَن غزوه، بل صار مكاناً ينبغي الابتعاد عنه بأسرع ما يمكن. لقد تغيّر الموقف لكنّ الترتيب بين الضفتين لم يتغيّر: الذي تغيّر هو فقط أن الشعوب المستعمرة أصبحت شعوباً متخلّفة، شعوباً سوف يُحَتّم عليها دائماً أن تسعى في المرتبة الخلفية من دون أن يكتب لها النجاح. المتوسّط هو المكان الذي تنفتح عبره أوروبا على جنوب العالم؛ فهو يمثل إذاً نقيض الحداثة؛ إنه يمثل إبليس الذي يعترض طريق إله النموّ، والخطر الذي يتهدّد إيطاليا بعامّة، ومنطقتها الجنوبية بخاصّة، تماماً بسبب رسوخ متأتٍ من تاريخها ومن جغرافيتها. ففي هذا القالب الفظّ والشائع، يمثّل المتوسّط أموراً متنوّعة وأحياناً متعارضة، لكنّها، مع ذلك، وعلى غرار كلّ تصوّر رمزي ذي تأثير، بادية الترابط ضمن علامة سلبية وحيدة. فمن ناحية، يذكر المتوسّط بخطاب عشرين عاماً من الفاشية بمآلها الكارثي، أي أنه يذكر بسياسة تختار نهجَ العدوان الإمبريالي، بدل التوسّع المنتج. كما يعني، من ناحية أخرى، التخلّف ومعاندة التحديث، والقبلية واللاأخلاقية والمحسوبية، والمافيا وأساليب العمل غير الشرعية، والتعرّض لمخاطر التحالفات السيئة مع بلدان

عاجزة عن أي نمو وعن أي تغرّبٍ ناجح. المتوسّط، بهذا المعنى، هو المستنقع المسبب للعثرات، مستنقع زاخر بالنزاعات، بالإرهابيين، بالخرافات والأصوليات، متوسّطٌ هو نقيض الحداثة، تماماً مثل إيطاليا التي عجزت، هي أيضاً، عن تخطّي حالها، لأنها، كما قيل وتردّد، لم تلامس يوماً ذلك الترياق الذي يفتح أبواب الحداثة على مصراعيها، وهو ما يُعرَف بالإصلاحات البروتستانتية.

يبدو دوام التأخر الجنوبي، برغم المساعي المذهلة المبذولة، تأكيداً لهذه الصورة السلبية : فكلما توغلنا نزولاً في شبه الجزيرة الإيطالية تفاقمت أوجه المرَض، وتعاظم حجمها كَحِمْلٍ زائد : إنّ المتوسّط هو المقابل السلبي لأوروبا : ففيما تسعى هذه الأخيرة باتجاه الأعلى، نحو الشمال، يسعى المتوسّط باتجاه الأسفل. ما من خلاص ممكن للمتوسّط في خطاب الحداثة، فهو لن يتمكّن من التحرّر من رمزيته السلبية. أما الدلالة الوحيدة المقبولة عنه فهي تلك المتعلّقة بالسياحة وبالمناظر الخلابة، والهضاب المغروسة بأشجار الزيتون المرتمية في أحضان البحر، وشواطىء الإجازات حيث تستمتع القوى النظامية، في الأشهر المتبقية، بلحظات حرية وشمس وإعادة اكتشاف الطبيعة والجسد. نفحة هواء، على الأكثر، بمثابة تعويض عن حياة مكبوتة طوال السنة بِعَمَلٍ لا فسحةَ فيه ولا متنفّس. الرحلات السياحية البحرية، المغامرات، الليالي الحارّة في الهواء الطلق : إنّ متوسّط الإجازات هذا هو وحده الذي يحظى بالإجماعِ والقبول. مع تكاملٍ مستهجنٍ بعض الشيء بين الطابعين، عمد الكتّاب أيضاً إلى تظهيره وسرده : فجنوب إيطاليا هو فردوس يقطنه أبالسة، حيث جمال المنظر الطبيعي، الذي يُعتَبَر هبةً إلهية، يحث الجنوبيين على اعتبار أنفسهم على قدرٍ من الكمال، فتزداد حالهم تردياً باستمرار (هذا ما يقوله عن الصقليين في حوارٍ مع موظف بييمونتي، بطل رواية «الفهد»، المركيز دي ساليناس). وتكون المحصلة أن النتاج الأدبي يرقى إلى مستوى رفيع، وغالباً ما يلقى الحماسة والترحيب لأنه يؤكّد صورةً يائسة لا شفاءَ منها، وقالباً سلبياً جامداً. وفي معظم الأحيان يهجر

الكتّاب كامبانيا وصقلية، الأرض المعذّبة ولكنْ الغنية والخلاقة، ويتابعون من بعيد كأن شيئاً لم يكن.

«عوليس –يكتب رفاييلي لاكابريا (Raffaele La Capria) – (...) هو المثال الأكمل للإنسان المتوسّطي (...). نحن المتوسطيين المتحدّرين من عوليس، نحن مثله، ملاحو زوارق صغيرة. يستغرقنا بلوغ إيثاكا عشرة أعوام !»

الجنوب بجذره المتوسطي القديم هو معركة خاسرة ؛ إنه مكان مصيره التعفّن. والهروب منه هو العلاج الوحيد.

نادرة وغامضة هي الإشارات إلى المتوسّط غير المرسومة بمثل هذه السلبية ؛ وعندما نعثر عليها، لدى الشعراء خاصّة، دائماً تكون مجمّلةً بصور من التراث الكلاسيكي أو بالحنين إلى طفولةٍ شخصية ومتخيّلة (كازيمودو وسابا) أو أنها تغدو واحدةً من انعكاسات شتّى لشقاء العيش في القرن العشرين (مونتالي)، كناية عن الاتساع الهائل حيث تعكسُ ضآلتنا نفسَها. أما الأبحاث، سواء كانت من انتاج الحكومة أو المعارضة، فهي مستغرقة في بلاغات الحداثة الجديدة، تتلهّى بردّها إلى أبعد، على الدوام، باتجاه بقاع التجريب والطليعة الأدبية كما السياسية. لا يفلح المتوسّط في الظهور أمام أعين الرأي العام إلاّ عبر الصراع السياسي، عبر التضامن مع جبهة التحرير الوطني في الجزائر، أو، فيما بعد، مع الفلسطينيين إثرَ حرب الغفران. غير أن التضامن هنا هو تضامن أممي، يكون الفلسطينيون بموجبه مقرّبين كما كان الفييتكونغ مقربين في وقتٍ سابق. وعلى الرغم من هذه اللقاءات النضالية، النبيلة والمهمّة، والهامشية في الوقت نفسه، يبقى المتوسّط مرجعاً سلبياً فقط، يبقى هو الشيء الذي يريد الجميع أن يجتنبوه.

إيطاليا والمتوسّط : رجوع إلى المستقبل

لطالما طغت هذه النظرة إلى المتوسّط وكانت لها تبعات لا نغالي إذا وصفناها بالتدميرية. فالواقع أن استبعاد المتوسّط ليس

مجرّد استبعاد لجنوب إيطاليا، بل هو، أيضاً، استبعاد لإيطاليا نفسها، وفقدان لوعي خصوصيتها، وتعبير عن صلة مَرَضية يقيمها الإيطاليون بأنفسهم. إنّ مغالاة الخطاب حول الحداثة، وحول بناء وحدة أوروبا، قد تُرجِمَ في إيطاليا عبر التكرار المضني والهجاسيّ للفكرة القائلة إنّ الوسيلة الوحيدة المجدية لأن يكون المرء أوروبياً تتمثّل في أن يغيّر ما بنفسِه من كلّ السيئات ومن كلّ النوازع المتوسطية لكي يصبح أوروبياً شمالياً. فحيث تسود أصولية الحداثة، يبدو المتوسّط والجنوب أشبه بثقبٍ أسود، غير أن الهوية الإيطالية هي أيضاً خطر، وينبغي استبعادها.

منذ بضع سنوات فقط بدأت تتغيّر صورة المتوسّط، لا بل منذ سنوات قليلة بدأت تعلو أصوات مختلفة ومتعارضة مع النغمة التي كانت غالبة. والأحرى أن نقول إنّ بضعة أصوات كانت بدأت تعلو، منذ وقتٍ بعيد، ممهدةً لهذا التغيّر، وكان في طليعتها الممثل والمخرج سالنتو كارميلو بيني (Salento Carmelo Bene) والمغني والمؤلف الموسيقي الصقلي فرنكو باتياتو (Franco Battiato) المقتنعين، وإن بمعايير مختلفة كلّ الاختلاف، بأن الجنوب والمتوسّط أبعد ما يكونان عن تمثيلهما قيمةً سلبية، وأنهما مجال تجربة أرقى وأشدّ تعقيداً بأشواطٍ من الحداثة.

كذلك الأمر المغني والمؤلف الموسيقي الجنوي، هذه المرّة، فابريزيو دي أندره (Fabrizio De Andre) الذي أظهر في عام ١٩٨٤، عبر أسطوانته المعنونة "Creuza de Ma"، القوة الجديدة للمسارات المتوسطية القديمة. ليس فقط لأن نصوص الاسطوانة تتحدّث عن قصص هذا البحر المتنوعة، الجميلة والمرعبة، بل لأن التأليف الموسيقي نفسه يستند فيها إلى إيقاعات وآلات من مختلف بلدان المجال المتوسّطي. وليس الأمر مجرّد هروبٍ إلى «المكان الآخر»:

> «إنّ الفكرة الرئيسية – يروي دي أندره قائلاً – وُلِدَت عندما اكتشفنا أن اللغة الجنوية تشتمل على ما يزيد عن ألفي مفردة

يونانية أو تركية : هي تَرْكة الحركة التجارية القديمة، وهي تركة مشتركة، على نحوٍ خاص، بين المدن البحرية للمجال المتوسّطي.»

هناك روحية مماثلة في مجمل البحث المركّز والدقيق للكاتب فنشينزو كونسولو الذي انطلق من وعيه التام بأنه من الصعب جداً في إيطاليا اليوم «العثور على لغة للسرد»، فقرّر أنّ لغة الكاتب لن تستعيد عافيتها إلاّ بالرجوع إلى أصولها، هناك حيث ما زالت تكتسي ببعدٍ مقدّس، لجهة السرد الشفاهي، هناك حيث الصقلي يعاود اكتشاف المقامات، «ذلك النثر الموقّع الذي يضطلع بدورٍ تربوي منذ نشأته»، تلك المقامات التي تتيح

«تحويلاً للنثر إلى إيقاعٍ شعري. وغالباً ما يكون التغيير محسوساً في المجالات البعيدة عن الأماكن الرسمية والمؤسسات التي تطغى عليها بلاغة الحداثة.»

مسار آخر، مختلف جداً، سلكه رافاييلو نيغرو (Nigro Raphaelo) الذي انطلق مع «نيران باسنتي» من منطقةٍ داخلية في الجنوب، هي الباسيليكاتي، ليبلغ «الأدرياتيكي»، عنوان كتابه الأخير.

كما يحدث غالباً، فإنّ التغيّر يُلاحَظ مبكراً جداً في المناطق البعيدة عن القنوات الرسمية والمؤسّسية، المفعمة، لا بل المستغرقة في بلاغة الحداثة. أمّا بشأن الالتزام الذي يميّز هذه الأصوات «الخارجة عن الجوقة»، فنشير، خلال هذه السنوات الأخيرة، إلى دور غوفريدو فوفي (Goffredo Fofi)، الناشط الدؤوب في إطلاق المجلات وناشر عدد من الأنطولوجيات لكتابٍ جنوبيين شبّان لم تسترهنهم ذائقات الوسط الأدبي المهيمن. وحتّى نابولي هي الآن مجال للتجريب الثقافي (فلنذكر التجارب السينمائية ومسرح ماريو مارتوني (Mario Martoni) ولخلق إسهامات موسيقية جديدة يغدو فيها التراث، المنظور إليه من زاوية مختلفة عن تلك النظرة الذائعة والمقولبة التي كانت غالبة، قاطرةً تلتقي إيقاعات الحاضر، من موسيقى البلوز والروك إلى الراب، لكنها تلتقي أيضاً

الموسيقى المتوسّطية للضفاف الجنوبية. هذا ولا تنحصر حيوية الإنتاج الموسيقي بنابولي وحدها، لأننا نشهد، حتّى في البوليا، نشأة فرقٍ موسيقية جديدة مثيرة للاهتمام.

لقد كان للإدارات البلدية أيضاً دور لا يستهان به في عملية تثمين إعادة الاعتبار للانتماء المتوسّطي، «جمهوريات المدن» تلك التي باستعادتها تاريخ المدن الجنوبية، تمكّنت أخيراً من إعادة اكتشاف آلاف الحلقات التي تربطها بتاريخ المتوسط. وغالباً ما كانت تجربة معاودة تملّك تاريخ المدن الجنوبية، تعني معاودة اكتشاف للبحر: فالواقع أنها كانت قد أولت البحر ظهرها منصرفةً إلى امتداح رموز الحداثة الصناعية، عبر قبولها بالمصانع الضخمة المُلَوِّثة التي ما عادت اليوم، وهي أشبه بكاتدرائياتٍ في الصحراء، ومهجورة أكثر فأكثر، قادرةً على توفير عَمَل. كلّ المدن باتت تلتفت إلى تاريخها، أي تلتفت نحو البحر الذي لم يعد حدوداً عصيّة، بل قناة عريقة للتواصل بين الشعوب يتعيّن اليوم أن نعيد اكتشافها لكي نمنح الجنوب مجدداً طابعه المركزي. إنها انطلاقة لثورة المتخيّل.

علامة أخرى مثيرة للاهتمام تتمثّل، منذ أكثر من عقد من الزمن، بقيام الـ ARCI بتنظيم لقاءٍ كلّ سنتين للفنانين الشبان في المتوسّط، وإنْ بدت هذه اللقاءات أحياناً مناسبةً لتجارب عامّة لخطوات المواهب الشابة الأولى من دون أن تكون لها صلة ذات دلالة بالمتوسّط. مع ذلك فإنّ هذا الانزياح في المعنى هو مؤشّر لافت يتيح إظهار بعدٍ جديد في تصورات المتوسّط، أي اقتراب حقله الدلالي من الحقل الدلالي لمجال الإبداع بخاصّة، والحرية الخلاقة، والمخيّلة. إذ يُرى إلى المتوسّط بوصفه مكاناً أكثر حريّة، وبالتحديد لأنه أكثر بعداً عن صروح الذائقة والضغوط ودُرْجات السوق، لأنه وطن ترسانة غنية من المعاني التي لا تُستَخدَم على نحوٍ وقائي لتواجه موجات السوق الثقافية الكبرى، بل لتكون مرشّحاً نقدياً وانتقائياً بالنسبة لها، بوصفها ضمانةَ سمةٍ وانسجامٍ أصليين.

ففي الوقت الذي تلتفت فيه الحداثة بالنقد إلى خطواته الأولى الناقصة والمربكة، وفي الوقت الذي يأخذ فيه السجال النظري المعاصر بالكلام على عصر ما بعد الحداثة، يخرج المتوسّط من قوقعة تعريفٍ سلبيٍّ حصراً، ويبدأ مسار تغيير معناه، فلا يعود متطابقاً مع فظاعات ما قبل الحداثة التي يتعيّن تركها، بل يغدو مختلفاً، يغدو مروحةً من المعاني التي تتضافر على نحو خلّاق لتماشي العصر الوافِد.

إلى هذا الحدّ، تبدو صورة المتوسّط وقد انقلبت كلياً : إذ لم يعد مرحلةً سابقة على الحداثة والنمو، ولم يعد طرفاً منحطّاً من أطراف التقدّم، بل هوية مشوّهة تنبغي إعادة اكتشافها وإعادة ابتكارها في سياق الصلة بالحاضر، ولم يعد عائقاً، بل صار منهلاً. هكذا يكسر المتوسّط أحادية اللغة الأصولية للحداثة، كما يكسر لغة وسائل الإعلام المسطّحة (بازوليني) ويوسّع حقل الفكر والتجربة : إنه جذر متين، غير أنّه، في الأصل، متعدّد، ومحلّ صراعات ولقاءات، انتصارات وهزائم، ومبادلات وغزوات. فالمتوسّط الذي ينشأ ليس هوية متراصّة بل مشكالٌ يُعدّ الذهن لفهم تعقّد العالم، ويعدّه للهجنات، للتقاطعات، للهويات التي لا تعشق النقاءَ والخلوص، بل التي طالما شهدت الاختلاطَ.

ليس من الممكن طبعاً الكلام على المتوسّط، في إيطاليا وفي العالم بأسره، من دون التذكير بأعمال فرنان بروديل، وهي حجر الزاوية في كلّ عملٍ سوف يليها، ورسالة بعِثَ بها منذ نحو خمسين عاماً للبشرِ المفصولين بعضهم عن البعض الآخر بحدودهم القومية أو حلقات الإيديولوجيات النهمة، داعيةً إياهم للالتفات إلى أمكنة وأزمنة التاريخ السحيقة. لقد ترجم بروديل في إيطاليا لدى الناشر أيناودي (Einaudi) في العام ١٩٧٦، وأصبح منذ ذلك الوقت متداولاً، تدريجاً، في الوقت الذي يصل فيه الآن إلى إيطاليا دومينيك فرنانديز (Dominique Fernandez) بعوداته المتكرّرة إلى الجنوب وإلى «الأم» المتوسطية.

أمّا ترجمة كتاب بريدراغ ماتفييفيتش «المتوسّط. منهلٌ جديد»، إلى الإيطالية في العام ١٩٩١، فيشكّل بداية لمرحلةٍ جديدة. إذ يلاقي الكتاب الذي ينجح في تحويل الذكريات والأسفار والروائح إلى مادّة غنية للتأمّل والتماثل، استقبالاً مدوياً، فيلتقي، ويحفّز، ويسرّع من تعاظم هذا الشعور بإعادة اكتشاف جزء من المتوسّط لم يكن لينمو في السابق إلاّ تدريجاً. فأنشئت مختبرات ومجلات وروابط، ونظّمت مؤتمرات، حتّى خرج المتوسّط أخيراً من قوالب الترسيمات القديمة : الجناح الجنوبي لحلف شمال الأطلسي، مستنقع يقود إلى الفوضى، فردوس سياحي محاط بالشياطين. هؤلاء المتوسطيون الجدد ليسوا متساوين، ولا يُرى في صفوفهم بالطريقة نفسها إلى الصلة بين التراث والحداثة، غير أن تعدّد الأصوات هذا هو علامة على تغيّر لا رجوع عنه. فمن جهة هناك طموح "Limes" المجلة التي يديرها لوتشيو كاراتشولو (Caracciolo Lucio) التي تطمح إلى تأسيس فكرٍ جيوسياسي في إيطاليا (وحول إيطاليا)، ومن جهةٍ أخرى هناك جوقة الأصوات في كوسينزا، مع «التوقيت المحلّي» لماريو آلكارو (Mario Alcaro) مؤلّف «حول الهوية المتوسطية» الصادر حديثاً، وصولاً إلى العمل الهائل واللافت الذي أنجزه جيوسيبي كوفريدو (Giuseppi Coffredo) مع مجلّته "Da qui" (من هنا)، ومع البرنامج الاستثنائي للبحث حول «الإقامة في الجنوب» لبييترو لاوريانو (Pietro Laureano).

تلتقي هذه الحركة أيضاً مع ما تعمل على إنجازه الفئة الأكثر استنارة من الكنيسة الكاثوليكية التي تنظّم، من جهة، اللقاءات بين الأديان، وتلتزم، من جهة أخرى، عبر مؤسّسة كاريتاس والأعمال الخيرية، استقبال المهاجرين إلى السواحل الإيطالية من ألبانيا وتونس وتركيا. كما تؤدي جمعية س. إيجيديو (S. Egidio) دوراً لا يستهان به في مجال الاتصالات الدبلوماسية بين البلدان المتوسّطية ساعيةً لتغليب الحلول للنزاعات الأكثر احتداماً أو مناضلةً ضدّ التجريم الثقافي للإسلام واختزاله بالصيغ الأكثر تشدّداً وعدوانية. أمّا النزعة المسيحية الجامعة، فلا تستطيع، إذا لم

تقع في إغراء النزعة المتشدّدة، إلاّ أن تلاقي بترحاب هذه العودة إلى المتوسّط وتدمير كلّ حدود الانقسام السابقة. فالمتوسّط هو الحدّ الذي يجعل الحداثة الغربية مرغمةً على مواجهة آخَرَها، أي على مواجهة حدودها هي، وهو المكان المفضّل للحوار ولبناء السلام وتأسيس علاقة جديدة بين الأديان.

إنّ نهاية انقسام العالم إلى كتلتين متعارضتين يُعيد للبصر إمكانَ أن يلحظ الرسالة المسروقة، ما كان أمام أبصارنا ولم نتمكّن من رؤيته : مركزية إيطاليا المتوسطية. وليس من قبيل المصادفة أن يسرد إيرمانو ريا (Ermano Rea) في روايته «اللغز النابوليتاني» القصّة المأسوية لنخبة ثقافية وسياسية، في نابولي الخمسينات، تعاني الاختناق جرّاء هذا الانقسام، من مغبّة الستالينية والحرب الباردة. وليس مصادفة أن تتراءى لريا نفسه، في مقابلةٍ أجريت معه مؤخراً، بداية مرحلة جديدة :

> «إذا استطعنا أن نؤدي دورنا على نحو إيجابي، أمكننا الفوز، اليوم، بفوائد لا تحصى، شبيهة بتلك التي فزنا بها في ماضٍ قريب. إنّ المسمار الذي دُقَّ في المتوسّط يتحوّل من عاهةٍ إلى ثروة. حركة تبادل ثقافي وتجاري هائلة الحجم، وتفاهم عظيم بين شعوب تُعَدّ بملايين السكان.»

للسبب نفسه، ربّما يكون تشاؤم لاكابريا (La Capria) أقلّ حدّةً في كتابه الأخير «شعارات على جدران نابولي»، عندما يستسلم، في الصفحات الأخيرة للحلمِ الذي يرى فيه أن أهل نابولي تمكّنوا من تنفّس الصعداء بحرية أكبر، وأنهم بدأوا، برغم إقفال الخليج الوقائي، يشعرون بأنهم نقاط

> «اتصال بين حضارتين يجري دائماً السعي باتجاههما لأنهما تدركان استقلالية إحداهما عن الأخرى، وحاجة إحداهما إلى الأخرى : الحضارة الجرمانية والحضارة المتوسّطية.»

على هذا الخليط يمكّن بناء أوروبا.

يبدو أن الحكومات باتت تصغي تدريجاً إلى هذا النداء، حتّى لو كان يجد صعوبةً في تأكيد نفسه بوضوحٍ وثبات وتماسك. غير أن مستويات رفيعة في الجمهورية قد أشارت، في أكثر من مناسبة، إلى المتوسّط بوصفه مكاناً للسلام والنموّ، وساحةً حاسمةً بالنسبة لإيطاليا. سوى أن إدراك البعد الذي يوفره المتوسّط هو سيرورة معقّدة تتطلّب شجاعة، ولا تتطلّب فقط اقتباسات موحية ولكن هامشية.

فضلاً عن ذلك، إنّ الاعتراف بأهمية هذا النسب المتوسّطي، العريق والثمين، ليس ورقةً يمكن استخدامها في تقسيم محتمل لإيطاليا. وحتّى لو كان هذا العنفوان المتوسّطي يعود في جزء منه إلى سجال الرابطة (لقد اقترح أبرز منظري رابطة الشمال، جيانفرنكو ميليو Gianfranco Miglio ، تقسيم إيطاليا إلى ثلاث دول مع غلبة متوسطية على دولة الجنوب) فإنّه لا يندرج، بأية حال، ضمن منطق الانفصال الانتحاري. فالمتوسّط لا يعني فقط القسم الجنوبي من شبه الجزيرة الإيطالية، بل هو يسمها بطابعه ويشكّلها بمجموعها. إذ لا يمكن تصوّر إيطاليا خارج جغرافيتها وتاريخها، خارج وظيفتها كنقطة اتصال بين شرق وغرب المتوسّط، وبين شماله وجنوبه. فإمّا أن تكون قادرة على التحوّل إلى جسر، وإما أن تغدو ضحية انزلاق القارات، أي تغدو منطقة طرفية لطرقٍ تُقَرِّر وجهتها في مكان آخر ولمقاصد أخرى. إن كوسموبوليتية إيطاليا ونزعتها القومية السيئة تنجمان عن هذه الرسالة، عن استحالة أن ترى إيطاليا نفسها من دون المتوسّط، ومن دون بناء مسكونية متحدة بالصلات السلمية. إنّ عبارة Pontifex (الحَبرْ بالّلاتينية) تعني باني الجسور، ولا تكون إيطاليا هي إيطاليا إن لم تبنِ جسوراً.

يتعيّن على عودة المتوسّط هذه أن تهزم خصمين متوازيين، أحدهما هو انعكاس الآخر، واللذين يدعم أحدهما الآخر بفضل طابعهما الفظ : فمن جهة، هذا الوجود القوي والمتواتر لأصوليات

الحداثة التي يتبنّاها، كما أسلفنا، أولاء الذين يعتبرون المتوسّط، ويرغم كلّ المستجدات التي ذكرنا، جحيماً ينبغي أن نهجره، أولاء الذين يعتقدون بأن جنوب أوروبا هو خطأ جغرافي مؤسف، مجرّد ثقّالٍ لأوروبا الوحيدة الأوروبية فعلاً، أي أوروبا الشمال. ومن جهة ثانية، هناك خطر يتعاظم في ظلّ انبعاث صورة إيجابية للمتوسّط الغني والديناميكي والقوي. وهو متوسّط الفنادق التي تحمل اسمه وتشوّه الشواطىء والهضاب، متوسّط الاضطرابات، ذاك الذي يستغلّ من قبل زعماء المقاطعات الصغار، وذاك الذي يستحيل امتداحاً لهامشيةٍ متضخّمة في ظلّ بؤسه والتي ترى في الهوية المتوسّطية عفواً عن كلّ أطماعها ومضارياتها. إنها بلاغة المتوسّط، متوسّط التحوّليين، تلك التي تصبّ الماء في طاحونة أصوليي الحداثة، المتوسّط الذي يتورّم ويستخدم نعتاً لكلّ شيء، حتّى أفظع الأشياء، والذي يستخدم كورقة تين لستر ما يدعو إلى الخجل منه.

إنّ المتوسّط الأكثر رصانة ينبغي له أن يناضل ضدّ هاتين الصورتين، تلك التي تصوّره كشيطان معادٍ للحداثة وتلك التي، على الضدّ من ذلك، تمتدح سيئاته وتفاهات تاريخه الحديث، فتبعده عن حقل الاحتمالات الشاسع الذي ينفتح أمامه اليوم. لا ينبغي للمتوسّط أن يبقى محصوراً بالجنوب، بل أن يصعد قدماً في أنحاء شبه الجزيرة (الإيطالية) وأن ينبّه إيطاليا بأسرها إلى أنها إذا عمدت إلى إسكات جذورها المتوسّطية، فإنّ مصيرها ألاّ تُسمَعَ كلمتها فتغدو نسخةً كاريكاتورية عن الآخرين.

ولكي نختم نسوق مثلين يشيران إلى طريقة جديدة في النظر إلى المتوسّط، كما يشيران إلى الطريق القويم. لقد قدّم اقتراح في ليتشه (Lecce)، خلال ندوة دولية حول الهجرة، بأن يتمّ إنشاء جامعة متوسّطية في سيغونيلا، وهي بلدة صغيرة في صقلية اشتهرت خاصّة بسبب قواعدها العسكرية. فإنشاء مكانٍ للقاء حيث لم يكن هناك سوى وجود عسكري، لهو أمر بالغ الدلالة. كما هي بالغة

الدلالة المبادرة العفوية التي اتخذها سكان كاسترو مارينا (Castro Marina) الذين استقبلوا الناجين من سفن المهاجرين الغارقة على ساحلهم (المليء عادة بالسياح)، وقدموا المأوى لرجال ونساء وأطفال غرباء، لأنهم لم يروا في هؤلاء الأخوة البؤساء والمبللين بالماء سوى إخوة فارين. إن مبادرة مثل هذه لعلى قدر كبير من الأهمية لأنها تظهر للبلاد بأسرها وجهة المستقبل التي ينبغي اتباعها. فإيطاليا، من الناحية الجغرافية، هي جسر بين المتوسّط وأوروبا. وسوف تستردّ نفسها بتحولها إلى جسرٍ مماثلٍ على الصعيد الثقافي والسياسي والاقتصادي.

غير أن المشكلة، كما نعلم، ليست فقط مشكلة إيطالية : ذلك أن أوروبا التي تعمل على بناء وحدتها بصعوبةٍ بالغة، لن تكون كياناً جدياً إلاّ إذا تأسست على مواجهة ولقاء بين الروح المتوسّطية والروح الشمالية. فكما قال ألبير كامو في زمانه :

> «لم تكن أوروبا يوماً إلاّ من خلال هذا الصراع بين الظهر ومنتصف الليل. ولم يبلغها الانحطاط إلاّ بتخليها عن هذا الصراع، إذ جعلت الليل يكسف النهار.»

يجبَ أن نجتنبَ، اليوم كما أمس، تخريب هذا التوازن بين النهار والليل. يرقى صدور «الإنسان المتمرّد» إلى العام ١٩٥١، غير أننا قد نجد في ما كتبه كامو، آنذاك، كلاماً يليق بنهايات هذا القرن.

فينشينزو كونسولو

خرابُ سَرَقُسطه

ترجمه عن الفرنسية بسام حجّار

من الشرفة المطلّة على الحديقة، ناحيةَ البحر – شجرات الجوز والليمون والونيلية والرمّان والتين الشتوي وتين مسّينا والبلح والموز واليوسفيّ والأرْز وليمون البرتغال والصبّار والباهرة واللبلاب والكرم المعترش على جدار الإسطبل، والياسمين يزنّر القوس، وأسيجة الهليون الزنبقي، والآس، وجلبة الناعورة كمثلِ الخردة، والحمار المغمّى يدورُ ولا يكفّ عن الدوران – من الشرفةِ كنّا نرى الجُزُر، تارةً بعيدة، خفيفة، شفّافة كالورق أو نسيج الكتّان، ساكنة أو تائهة في عرض البحر، معلّقة في السماء، وتارةً غير مرئية إذ يحجبها ستارٌ من الغيم أو البخار، وطوراً متقدّمة، قريبة من الشاطئ ، وعرة وجلية، مقلقة – طقس سيئ، طقس سيئ ! وكان، على الدوام، عالمٌ على حدة، مجهول وبعيد. كان يرى أحياناً على الضفّة صيّادين من ليباري جرّتهم الأنواء إلى هنا، مرغمين على سحبِ مراكبهم فوق عوارض من الخشب، وقد تَلُفَت محاور الدفّة وقُعيّها، متبطّلين على البرّ بسبب البحر الهائج إذ عصفت به ريح الشُلوقِ أو المِسترال. في أسمالهم، منهوكين، كانوا يفترشون الشباك مستظلّين بالأشرعة. ثمّ يهبّون فجأةً، هارعين إلى الطريق، باتجاه المرفأ، عند صخرة الحصن، إذ يتناهى إلى مسامعهم جرس الحواجز التي تُخفَض. وهناك كانوا يقفون، جنباً إلى جنب، قلقين. مكتنفاً بصفيره الحاد المرعب، وسط دخان الجحيم، متباطئاً، قديراً، يعبر القطار، وبخفّةٍ تعبر الأعجوبة التي طويلاً سيحدّثون عنها زوجاتهم الذاهلات وأولادهم الحالمين.

– ولكن إلى أين، إلى أي مكان أنت ذاهبة يا ابنتي ؟ إنها جزيرة منفى، وبلد معتقلين...

– إنه رجل رصين ومستقيم. وسوف يأتي، في غضون أيام، برفقة أبيه ليطلب يدي.

هكذا بدأ بالتعرّف إلى الجزر، قاصداً ليباري لزيارة اخته، في

منزلها الأحمر الصغير في مقاطعة ديانا، أو تحت الأرض، تحت الزقاق والكروم ومساكب البقول، والمنازل، حول الأحواض ، حيث كانت توجد قوارير رماد الموتى، جرار ضخمة ذات أحجام رشيقة، أضرحة حجارة : باطيّات مرامد دسوت قوارير قصعات قماقم مذابح صغيرة علَب مراهم...

كان يضخّ مياه الحوض المطهّرة بالحنكليس، ويقطف عناقيد العنب التركي أو عنب كورنثيا، ويفتّش مع الصبيين في المروج، في مسكبة الخسّ والطماطم، فوق أرض مكتظّة بالأصداء، مقبرة فينيقية، ثم يونانية، ويصحب والده، الكاتب العدل الموقّت الجوّال، إلى جزر أخرى، لكي يحرّر العقود والتوكيلات والوصايا. كان يذهب إلى رينيلا، إلى ليني ومالفا وسالينا، في فجر البلّور، على دروبٍ ساكنة. كان الفلاحون والصيادون يبيعون بيوتهم المبنية من مكعّبات حجر وملاط، حوضها جافّ والكرم يابس على عُمُد الخشب، والحقل من خفّان وسبَج، كانوا يبيعون مراكب مخلّعة وعربات تالفة، ويهاجرون إلى البعيد، إلى أوستراليا عذراء من كلّ تاريخ، من كلّ ذاكرة.

ومع ذلك فإنّ الذين مكثوا جُعِلَت لهم الأمكنة فسيحةً كأعطية من الغائبين والموتى. وكان الزمن منقضياً لا يزال، وكان للألم والنزر القليل من البهجة أصوات آدمية.

روى إيول على مسامع أبناء أخته، القرَبَ والرياح، الأراغن الصادحة فوق المضيق الجبلي، والتهم كعكَ العنب وعسل الميلاد، و «البباجيجي»، واحتسى نبيذ مالفوازي من فاريسانا، ودخلَ قُنّةَ الكبريت، وحمّامات القدماء الساخنة، وتسلّق البراكين حتّى الفوّهات، واصطاد الحبّارة ليلاً في وسط القناة، وتوغّل في مغرِ الخفّان، وخاطب قلاّعي الصوّان. لدى كلّ هَبوبٍ يرتفع غبار المقالع ويدوّم في الفضاء ثمّ يسقط مجدداً، يتغلغل في منازل الطبشور وملح البارود. كان قلاّعو الصوّان ذوي بشرة جافّة مترية، أسنانهم حتّها الغبار، يتجرّعون المنشطات ومقوّيات

القلب : وشيئاً فشيئاً كانت تنمو في داخلهم دروع من حجر، ويتضخّم قلبهم، وتخفت أنفاسهم، وتذوي.

كان يركض فوق المدينة باتجاه الحصن. كان يستلقي على بلاطة طفحيةٍ لضريحٍ في المنتزه ويتأمّل اللازورد الكثيف، الغيوم الخفيفة العابرة، ويفكّر في الزمن السحيق، في الطبيعة الأولى لهذا المكان، يصغي إلى صفير، إلى هدير السفن التي ترسو لبعض الوقت أو تنشر القلاع في مارينا كورتا، وفي سوتو ومونّاستيرو. وبين حافة الضريح وحلقته تبدّت له، في حرّ الظهيرة، بمفردها، شعرها كالأفاعي، كاللهب، داكنة البَشْرة كميديا، هي ديدون، المأسوية، آنا المتدفقة التي هجرها حبيبها.

أبحر ذات يوم عاصف، ذات بحرٍ مخيف. وما أن غادر الميناء، الملاذ، منارة فولكانو، كادت السفينة أن تغرق في عرض البحر. كانت تُقذَف فوق الذرى، وتغوص حتّى القاع، تدور حول نفسها، تتقلّب، تتموّج على هَدْيِ غضبةِ الريح، غضبةِ الأمواج. موجة عنيفة جرفت السطحَ بقرقعة مراكب النجاة، والمراسي والسلاسل، وحطّمت كلّ شيء.

– إنها الساعة ! قال النوتيّ، وفرّ هارباً.

جعلتِ النساء يُعوِلنَ، يتوسّلنَ شفاعة القديس بارتولوميو، والمسيح والسيّدة العذراء، والرجالُ، شاحبين، استفرغوا ما في الجوف.

أخيراً – برحمة إله – بلغت السفينة رأس ميلازو، وحاذت الرصيفَ على مهَلٍ، قبل أن تلجَ الميناء.

أعاصير أخرى، وثورات براكين أخرى، أمطار رماد، تدفّق حمم، هجمات قراصنة أخرى، كلّها عصفت ودمرت جزره الأيولية، البلانكتاي، الجزر الخفيفة والشفافة، المعلّقة في السماء، الساكنة في الذكرى.

رياح بورياس الشمالية الباردة الوافدة من مضائق بيلور، دفعته نحو ساحل المستوطنين القادمين من موكينيا وميغارا ونيسيا وشالسيس وكورنثيا، بين ميغارهويليا وثابسوس، وقادته إلى الجون الصغير خلف نتوء إيزو، في تيمينوس الفقدان والهذيان، والفتنة والانخطاف، حيث، في غلَسِ يومٍ من أيام آب/أغسطس ظهرت لخبير اللهجات الإيونية الشاب، طالعةً من البحر، مخلوقة سامية وخشنة الطباع، مراهقة ودهرية، بريئة وعالمة، الحورية الصامتة التي تطغى وتستحوذ، وتستدرج إلى الملاذات القارّة، إلى الأعماق السرمدية الساكنة.

مخلوقان حقيقيان، منبثقان من كثبان النسيان، عائدان من ليل ميغارا السحيق، أنجداه : الأمّ المقتدرة التي ترضع توأمين، والكوروس الواقف وعلى فخذه نقش سامبروتيداس، ابن مندروقليس : ولكنْ من كنتَ أنتَ أيها الطفل القديم، ولأي غرض جعلك أبوك منحوتاً في الصخر ؟

*
* *

يركض على الدرب باتجاه سرقُسطه، على طول الشاطىء الكلسيّ الأبيض المخرّم، عند سفح هضابِ هيبلا، ويذهب إلى أبعد من تورو وبروكولي وفيلاسموندو، يتغلغل في جحيم المعدن والنار الشاسع، جحيم الأبخرة والدخان، في مصانع الإسمنت والسماد، والأحماض والديوكسين، ومحطات التوليد الحراري والمصافي، في ميليلي وبريولو المصنوعة من اسطوانات وأهرامات، خزانات النفط، والزيوت والمحروقات في المملكة المشوَّمة لِلستريغونات ذات بأس، وعمالقةٍ مفترسين يدوسون البشر والقوانين والأخلاق، مفسدين، مبتزّين؛ ينحرف عبر أوغوستا، الأوستا على الخرسونيزس، بين أسكلتين، الكسيفونية والميغارية، في الجزيرة المتصلة بالأرض عبر جسرين. مدينة الأغسطسين، الروماني والسوابي، أسيرة قصرها الباذخ، في معاقلها، في أسوارها، محاطة

بالصخور ويقلاعٍ ذات أسماء رنّانة، أفالوس، غارثيا، فيتوريا، مهدّمة بفعل الزلازل والحروب ومرمّمة على الدوام، وما أن يجتاز الباب الأسباني، تتراءى له المدينة في نور رماد، في حزن إيولية مهزومة ومدمّرة، في ضنى الهجران، في تسمّم السماء والبحر والأرض. على خلفية ثكنٍ مخفية ومهاجع فارغة، منخورة برشقاتٍ وشظايا، على خلفية الديكور الثابت لحرب جنونٍ ومذبحة أخيرة، كانت ماثلةً الأنقاضُ الجديدة التي سبّبتها الهزّة الأرضية ذات ليلة من ليالي كانون الأول/ديسمبر التي شقّت السقوف، وجدران البيوت والمنازل وأحنت العُمُد والركائز، وشوّهت التماثيل، ودمّرت منازل بورغوتا وأضفت عليها طابعاً شبحياً.

– لقد أيقظني عصف رياح عاتية هبّت فجأةً ورجّت الأشجار والبيوت. وبعد دويٍّ هائل، شعرت بأن الأرض تهتزّ وتموج لثوانٍ بدت لي دهراً. وبعد هدأة، بعد سكون، بدا هو الآخر دهراً، تتالى العويل والصراخ فيما الناس يهجرون بيوتهم، راكضين نحو الجبل، نحو ممرّ غيزيرا، وعذراء آدوناي – روى سالفو الشاب على مسامع الغريب.

سالفو يعمل ويعين والده الضرير، بشوش المحيّا، صافي السريرة. يعشق هذه المدينة التي هي مدينته، لا يرى هذه الجدران المتداعية، هذه الكنائس المدعّمة جدرانها بعُمُدٍ، هذه البيوت المقفرة، هذا الميناء، هذا البحر اللزج الذي اجتاحته ناقلات النفط، ومن حوله، حقول أشجار الزيتون واللوز السوداء، هذه الشطآن التي يكسوها الضباب، هذا الأفق، هذا الخطّ المتمادي من الخيم والأنابيب والحفر المطمورة. يعشقان، هو وعمّه المدرّس المتقاعد، مدينة الماضي، السابقة على عهد الرومان، والسابقة على تلك التي حصّنها فردريك الكبير بقلعة وحظوات، المدينة القديمة التي يعرفان كلّ حجرٍ منها، كلّ حدثٍ فيها، والتي يكتبان معاً تاريخها : يعشقان حلماً، عالماً بعيداً، بعيداً عن فظاعات اليوم.

بلطفٍ يرافقانه إلى حيث تجري الحفريات. وبعد أن ساروا على

طول ضفاف الخليج، وصلوا إلى سهل ميغار، إلى المدينة التي أنشأها مهاجرون يونانيون بقيادة الزعيم لاميس. صفّ كثيف من أشجار السرو، بعد نطاق الأسوار، يحجب منظر مداخن المدافىء والخيم التي طرأت على المقبرة القديمة. وبوهمٍ بصريّ تتصاعد الآن من ذرى الأشجار ألسنة نيران ودخان، وهذه السروات الرشيقة، كأنها مشاعل، كأنها شموع عملاقة، موقدة من أجل إله اللؤمِ والكارثة. هنا، قرب البحر، بين نهري ألابون وسيلينو، نقل فلاحو ميغار وصيادوها وحرفيوها على مراكبهم، ثمّ غرسوا هنا، بقرب الصِقاليين الأصليين، معتقداتهم وتقاليدهم ولغاتهم. ولكن إزاء هذه المساحات غير المأهولة، إزاء هذه الأمداء الشاسعة، إزاء هذه الأرض المجهولة المحيّرة التي حسبوها مترامية إلى ما لا نهاية، شعروا بالحاجة لأن ينجزوا، لأن يهندسوا، لأن يقسّموا حصصاً : لأن يتصوّروا على نحوٍ جديد بناء مدينتهم، بناء مستوطنتهم الجديدة. شغلوا الحقول الخصبة، الغنية بالمياه، وزرعوا الحنطة، وغرسوا الكرمة، وأشجار الزيتون، وابتنت كلّ أسرة منزلاً خاصاً بها. خصّصوا أمكنة مركزية للعبادة، وللأنشطة والحاجات المشتركة، أمكنة للمعابد ولاجتماعاتهم، ومخازن لحنطتهم، وطرقات رحبة آمنة، وأماكن لدفن موتاهم وتكرمهم.

بين البحر والنهرين والسهل شيّد المستوطنون ميغار، وبفكرة المساواة والتقدّم، والإيمان بالتسامح واحترام كلّ اختلاف ثقافي أو لغوي، بنوا إرادة الانسجام والتعايش بين مختلف العشائر، وبين مختلف الأنساب. أناس بمثل تلك الجدّة، وذلك التطوّر، وذاك الكبرياء، ملكوا الشجاعة، إذ تهدّدهم جيرانهم، وخضعوا لضغوط كورنثيي سرقسطه، لأن يغادروا ميغار وينشئوا، في المكان الأكثر انعزالاً وبعداً، في أقصى الغرب، على البحر الإفريقي، مستوطنةً أخرى، الرائعة المتمدّنة سيلينونتا.

إلى الأبعد، وراء بيريولو غارغالو، وعند سفح الجبال الكليمية، تقع شبه جزيرة مانييزي، محطّة ثابسوس منذ ما قبل التاريخ.

برفقة سالفو وعمّه، يمرّ بقرب مصنعٍ للكْرُوم مهجورٍ تأكّل سياجه المشبّك من الصدأ. من فنائه تميلُ شجرة تين معوّجة الجذع فاردةً ظلّها الرفيع على طريق ترابية. يتقدّم حتّى الرصيف، باتجاه المقبرة على شاطىء البحر. الأضرحة محفورة في كتل الجير، مغرٌ دائرية كانت توضع فيها الجثث. أمواج البحر باتت تتدفّق إلى داخل القبور، وتترك فيها النفايات، قطع خشب، علب معدنٍ وبلاستيك وفلين وقطران. وراء شبه الجزيرة، وفي وهج الشمس، وسط المصافي، تتراءى مارينا دي ميليلي، البلدة التي أخليت حيث النساء يضعنَ أطفالاً مشوّهين.

عند شبه جزيرة الطحالب والحجر، عند ثابسوس المُغُرِ الحاضنة، وآبار التحلّل والنسيان، يغادر، قبالة توهّج البحر، الوجهين النحيلين، سالفو والعمّ جيوسيبي، يغادر خليج السخام، ومراكب الحثالات، والكنائس المدنّسة، والقلعة والمنارة المطفأة.

*
* *

إنه الآن في قلبِ عالم الجير، والفليس ذي اللون العسلي، في الضياء الشرقي، الدقّة والنعمى، الخط المستقيم واللولب، إنه في مركز أورتيجيا، في الهواء المقدّس، في الحيّز الذي في هيئة عين، في حدقة الحورية، عند الساحة التي تسود فيها ربّة النور والبصر. سيبيل قديسة الرسائل البصرية، قديسة ضوء الشمعة الوديع، إنه في الكهف الذي رُصّعت فيه، بغلبة الجدران المسيحية، الأعمدة اليونانية ذات الهندسة النقية، حيث أنزلَ كالفَصِّ معبد أثينا، ربّة الزيتون والزيت، وربّة الغذاء والحكمة، شفيعة المهتدين بعد ضلال، وعون التائه.

فلتأخذه ولتعِنْهُ هو أيضاً شفيعة النور، فلترشده بين هاوياتٍ، عبر غيومٍ، وسماوات مدينته. مدينة متعدّدة، ذات خمسة أسماء، ذات أبهةٍ ويأسٍ قديمين، ذات ملوك علماء وطغاةٍ عميان، ذات

سلامٍ متمادٍ وحروب مدمّرة، ذات هجمات بربرية وذات نهب : مدوّنٌ في سرقسطه، كما في كلّ المدن عريقة المجد، تاريخ الحضارة البشرية وغروبها.

في سرقسطه كان الليل يهبط
بلا قمرٍ، والماء الأدكن
الآسن يظهر مجدداً في الحفرة،
كنّا نسير وحيدين بين الخرائب،
وفي البعيد صانعُ حبالٍ مشى إلى الأمام. (١)

كان يودّ لو أنه امتلك النبرة المجرّدة الخفيضة، نبرة أونغاريتي الكتيمة الشاكية أو كلّ نبرات الشعراء الذين لا يحصى عددهم، لكي ينشد، وهو موشكٌ أن يخطو كما في رقصة جماعية فوق بلاط حلبة ضيّقة، ضدّ الفليس الفاتح للبيوت، لمجرّد أنه رأى مرفأ بليميريون الكبير، ملتقى أنابسوس وسياني، خلفَ السياج الذي يزنّر عين هيبلي، ينبوع أريثوس، لمجرّد أنه رأى بياض هضاب هيبلي، لكي ينشد كمهاجرٍ أغنيةَ حنين لمدينة ذاكرته لمدينة الذاكرة الجمعية هذه، لوطن الجميع هذا الذي يدعى سرقسطه، جميع من يحفظون معرفةً بالإنساني، بالحضارة الحقّة، بالثقافة. أغنية حنين كتلك التي أنشدتها رفيقات أفغينيا، المسبيات في توريديا الحجارة والزيتون البري. ذلك أن هذه حالنا اليوم، منفيين إلى أرضٍ لا تحسن وفادتنا، مُبعَدين عن سرقسطه إنسانية، عن المدينة التي لا تني تنسحب، تنزلق في ماضيها، وتجعل من نفسها أثينا وأرغوس، قسطنطينية واسكندرية، التي تدور حول التاريخ، حول الشعر، الشعر الذي يستلهم منها حيويته، ويتجه نحوها، حول شعراء يدعون بندارس وسيمونيدس وباكيليدس وفيرجيل وأوفيد وإبن حمديس المنفي إلى مايوركا.

وراءك أيها البحر، هناكَ فردوسي : ذاك الذي فيه
عشتُ بين الملذات لا الدواهي !
عشت بين الملذات لا الدواهي !

هناك شهدتُ بزوغ الفجر، والآن، هبوط المساء،
رحماكَ لِمَ تبعدني عنه !

وراء الأصوات، كلمات تحلّق، يخيّل إليه أن اسم سرقسطه يتجسّد، كما لمورياسان وبورجيزي وفيتوريني، في جسد امرأة لؤلئي، جسد كليمانتين أو زبيدة ، جسد الفينوس التي رآها المسافر، في المتحف القديم المطلّ على البحر، مشعّة بالنور في امتلاء بدنها، الحوض والجذع المجيد اللذين يسفحان من ستر ثنايا الملاءة المثبتة باليد فوق العانة، بنور الشمس الذي ينبجس في الحجرة. تتجسّد سرقسطه في الخيال الجامد التقاطيع، المشعّ ، الجائر السرّيالي كمثل حلم، في النصل المغروز في الحلق، في العينين المنتزعتين من محجريهما، المعروضتين فوق الكوكب، في صورة لوسيا.

العذراء البيضاء، الفوتيناسية، اللوسيفيرية، البلادية، المتيبسة في جسدها الفضّي، تخرج، في يوم العيد، منتصبةً على فضّةِ محملها، تخرج في كسوف الحيّز، في حيّز العين الهائلة، في المدرّج الباروكي حيث ترتفع واجهة الدير المشيّد على اسمها. خلف السياج المستدير للمقصورة، راهبات بيضاوات حبيسات يطلقن في اللازورد سمّانى وحمائم وطيور الأطرغلّة والحساسين. خفق الأجنحة، التحليق، يجري لذكرى الحمائم التي كانت تأتي، في زمن الشحّ والجوع، في منقارها حبّة حنطة، كتلك التي فرّت من سفينة نوح وفي منقارها غصن زيتون، لتقول إن في المرفأ اجترحَتِ المعجزة الكبرى.

مركب سفينة وصل إلى أورتيجيا، إلى المرفأ الذي تلتقي فيه آلفي حبيبها آريثوس، حيث يضيع سياني في البرديّ. هل قَدِمَ من مالطا أم من كانديا أم من كورنثيا ؟ هل قَدِمَ من سفينة شحن من ليكاتا، من بوزالا، من تيرانوفا ؟ لا تحصى هي الدروب التي وحدهم القراصنة يحرّرون مسلكها أو يقفلونه.

الأعمدة وتيجانها، ألواح جبهات المعابد والكاتدرائيات تتقاطع وترتفع فوق السطوح وفوق البلاط الشمسيّ لسرقسطه، البيضاء كفينوس الأناديومينية التي يجعلها انعكاس الوهج البحري فاترةً في دَعةِ جسدها. وأبعد، أبعد من نيابوليس وأبيبوليس، أبعد من المدرّج ومن الأوريال، أبعد من شجرات اللوز، والصعتر والعسل، أبعد من الهيبلي، يقع المركز، الأومفالُس، الأرض التي منها جاء القمح التي ملئت به صهاريج المركب. وفوق، فوق إينّا العليّة، يوجد تاج الأم، تاج ديميتير، تاج الإلهة المُهانة التي اتشحت بالسواد.

*
* *

راح الناجي يجوب الأنحاء خارج أورتيجيا، وراء المرفأ الكبير، وراء شارع إيلورينا، وراء الأنابوس الذي ينحدر من مضائق بنتاليكا، ووصل إلى نتوء بلميرون، عند معبد زيوس الأولمبي، حيث بقي عمودان، وشجرة لوز، وشجرة زيتون. وهناك، استظلّ فيء الوريقات الرشيقة، مستلقياً، وقد غلبه النعاس.

لم يدرِ لمّا استيقظ أين هو، ولم يتعرّف إلى المكان توّاً. نظر إلى المدينة نائية وراء المرفأ، فوق الجزيرة ، مثقلةً بالأبخرة، وضباب الحرّ، وأدرك مما حوله من أعمدة وأشجار ومراكب شراعية وزوارق صيد وناقلات نفط تمخر البحر، من المنارة من قلعة مانياس، أنه في سرقسطه، عند مدخل المرفأ، قبالة المتوسّط. تذكّر اللحظة التي، ما وراء البحر، ذهب فيها وزوجته في رحلة على طول الساحل التونسي.

كانت الطريق تسعى مستقيمةً باتجاه بيزرت، وسط شجيراتٍ متفرقة في الأرجاء. وبين حينٍ وحين، على الجانبين بضع خيمٍ للبدو، بضع نساء متدثّراتٍ بأقمشةٍ مرقّشةٍ، بضعة جمال، وقطيع صغير يرعاه أولاد. وما أن غادروا الطريق، بعد الجسر القائم فوق

وادي مجرده، توغّلوا في الوعر ذي الهضاب الوطيئة، ووصلوا إلى آثار أوتيكا.

في صيف السياحة والضجيج، أخيراً كانت الواحة، في جزيرة من الصمت والدعة. جزيرة وفي داخلها جزيرة أوتيكا، الوحيدة المضاءة، والمؤلّفة من عدد قليل من البيوت حول فِناء : حيطان وطيئة، وأرضية من الفسيفساء الرخيصة، بضعة أحواض، وكلّها عاريةً معرّضةً وسط الاتساع الصحراوي، مما تبقّى من إحدى مستعمرات صور، حليفة الرومان، مدينة كاتون، المشّاء الذي قتل نفسه هنا لكي لا يقع في أسر قيصر.

يبحث عن حريّةٍ يبُذل ُدونها الغالي
كما يدري من في سبيلها بذلَ الحياة
وأنتَ تدري، لأنّ الموتَ لكَ
لم يكن مريراً في أوتيكا...(٢)

ألفوا أنفسهم على تلك الأرض، وسط هذه الأحجار حيث العجوز، أمام «الأنظار الحيية» لزوجته الشابة، مارزيا، أدار السيف نحو «نحره المقدّس».

بين الأحجار والفسيفساء، كان عطر حلوٌ لحبقٍ كثٍّ ومسنّن في أحواضٍ من الآجرّ. كان عطر صيفيّات الطماطم والبصل والخيار، والحبق الذي كان المتقدّمون في السنّ حين يخرجون إلى الشوارع عند المغيب، منتعشين مسربلين بالبياض في قمصانهم القطنية النظيفة، يضعونه خلف الأذن ؛ وكان عطره قوياً بحيث يشيع نسمات رقيقة كأنها مبهّرة بالقرفة.

فجأة ظهر عجوز، لا أحد يدري من أين، عربي متبسّم سألهم إذا كانوا يرغبون في سماع حكايات أوتيكا، تاريخها. أرادوا أن يعرفوا كلّ شيء عن الحبق، عن سرّ وفرته في هذه الصحراء، عن عطره. أزاح العجوز سويّة الأرض غطاءً وكشف لهم عن فتحة مستديرة لبئرٍ أو خزّان. ثمّ اقتلع بتؤدة نباتاتٍ فتية جاعلاً منها

باقةً وقدّمها لهم. هذا الحبق الذي ما عاد بوفرته السابقة، غطّى المصطبة والشرفة في أصص وأحواض، مجتاحاً بيتهم الصقليّ؛ وكان، عند الغروب، يشيع عطره في النسمات الحارّة، المضنية، فيخفّف بضوعه الناعم، ويذكرى أوتيكا، من كآباتهم.

تذكّر أكثر الأمكنة تواضعاً، قديمةً ومنسية، تلك التي يحيط بها المتوسّط، تذكّر تنداريس، سولونتي، كمارينا، هرقلية، موزيا، نورا، آرغوس، ثويوردو، ماخوس، سيرينا، ليبتيس مانيا، تيبازا... تذكّر ساحة المساجد قبالة المرفأ، تذكّر سجن الجزائر والدون ميغيل دي سرفانتس الذي كان يكتب الأوكتافية إلى رفيقه المفتدى والعائد إلى مونريالي، إلى الشاعر أنطونيو فينيسيانو... وتذكّر وتذكّر... خيّلَ إليه أنه صار رجلاً مشوّشاً، ذا ذهن متوقّد مستغرقاً في تأمّل هذا الماضي البعيد الذي ولّى إلى الأبد؛ لطالما انسحب من حاضره، عجوزاً مستاءً؛ فكّر أنه ما عاد في هذا العالم سوى ظلّ، خيال ضباب، ذهن بليد، روحٍ ما زالت تنوء تحت ثقل الجثث، تحت ثقل الحنين، كاسيلا ضئيل وضال على شاطىء يتلو بحماسة أبيات شعرٍ عظيمة، وينشد:

أيهّا الحبّ الصادح في فؤادي [٣]

لا، ليس الآن. الآن بات يكره. يكره جزيرته المقيتة، البربرية، يكره أرض المجازرِ أرضه، أرض المقتلات، يكره بلاده الغارقة في الظلام، أوروبا التي هجرها العقل.

يكره هذه القسطنطينية المنهوبة، هذه الإسكندرية المحترقة، هذه الأثينا، هذه الطيبه، هذه الميلانو، هذه الوهران الموبوءة، هذه المسّينا، هذه اللشبونة المضروبة بالزلازل، وهذه الصدفة الذهبية المكسوة بكفن من إسمنت، بستان الليمون المدمّى. يكره هذا المسرح الذي غاب عنه كلّ إشفاق، تلك الخشبة التي عليها تذبح إفغينيا، والإتنا، توريدا المغاوير هذه حيث تستهلك حيوات، وبضائع، حيث يبذل شرفٌ وخفرٌ، وثقافة، ولغة، وذكاء...

أيتها المدينة، يا خلاصة المدن كلّها، مركز جهات العالم الأربع ! أيتها المدينة، المدينة، مجد كلّ المسيحيين ودمار البرابرة ! أيتها المدينة، المدينة، الفردوس الجديد المنتصب صوب الغرب الذي فيك غزارة النباتات ووفرة الفاكهة الروحية ! أين نبلك ؟ أين عظمتك الحالمة ؟

(دوكاس، شكوى «سقوط القسطنطينية»، نقلاً عن الترجمة المغفلة لأحد أبناء البندقية في القرن الخامس عشر)

*
* *

بلغ هضبة الهيبلي، بلغَ الدارة المنعزلة بجوار آفولا القديمة. على امتداد النجد الشاسع المرسومِ بالدعة، وبالحقول المتدرّجة المخطّطة بحيطان وطيئة بيضٍ من أحجارٍ بلا طين، موقّعة بأشجار السنديان الوارفة، وأشجار الزيتون والخروب. سمع أجراس القطعان، أزيز الجنادب عند الظهيرة، والزيزان عند المساء، وتغريد العصافير عند الصباح ؛ رأى أشواك الشياهم التي تغطّي الدروب، آثار الأرانب، بريق الحباحب على تعاريش الآس والمصطكا. راودته شكاوى بازوليني من أجل الهواء والماء المسمومين اللذين قتلا الحباحب، ما أحدث تغييراً في إيطاليا. راودته حباحب دانتي، وليوباردي، وحباحب كاوس وبيرنديلو، راوده بريقها الخابي على معطف الليل، على أشجار الزيتون المشرقية. فكّر في شاشا الذي كتب من ريفه في أغريجنتي، إلى بازوليني قائلاً : «الحباحب التي ظننت أنها انقرضت، ها هي تعود. لقد رأيت إحداها مساء أمس، بعد كلّ هذه السنين».

هو الآن يريد أن يكتب إلى شاشا قائلاً : «الحباحب التي ظننت أنك رأيت، يا ليوناردو، كانت وهماً، مثل اليرقانات المتلاشية التي أوجدها الساحر كوتروني في فيلا لاسكالونيا. وهمٌ كذلك هي تلك التي وجدت على هضاب هيبلي. نحن نحيا في مكانٍ للسحر، والذكرى والندم والحنين، نحن الذين بقينا هنا، في الفيلا المستوحدة، المنعزلة، عند سفح الجبل، تحت رحمة العمالقة».

الحواشي

(١) Giuseppe Ungaretti, "Ultimes choeurs pour la Terre promise" في Le carnet du vieillard (ترانيم أخيرة للأرض الموعودة) في «مفكّرة الرجل العجوز»، العدد ٢٥، ترجمها إلى الفرنسية فيليب جاكوتيه وفرنسيس بونج، باريس، غاليمار، «شعر»، ١٩٧٣، ص ٢٨٨ ؛

(٢) أنظر دانتي أليغييري ، الكوميديا الإلهية، (ترجمة حسن عثمان) ، المطهر، النشيد الأول، الأبيات ٧١–٧٤ ، منشورات دار المعارف بمصر، ط٢ من دون تاريخ (١٩٥٦ للطبعة الأولى) ؛ وانظر أيضاً : دانتي أليغييري، الكوميديا الإلهية، (ترجمة كاظم جهاد)، منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بمنحة من منظمة اليونسكو) بيروت، ٢٠٠٢ ؛

(٣) دانتي أليغييري، الكوميديا الإلهية، المطهر، النشيد الثاني، البيت ١١٢ ؛

تصورات
البحر الأبيض المتوسط

بإشراف تييري فابر، روبير إلبير، غريغور مايرينغ

عندما نتكلّم على المتوسط، لا نتكلّم على الشيء نفسه إذا نظرنا إليه من إيطاليا أو أسبانيا أو اليونان أو فرنسا أو مصر أو لبنان أو المغرب... ذلك أنّ تصوّرات المتوسط بنيت في كلّ مكان من هذه الأمكنة على طبقات تاريخية وثقافية مختلفة. وكان الغرض من هذا العمل «تصوّرات البحر الأبيض المتوسط» هو استكشاف هذه الأنساب المتنوّعة لفكرة المتوسّط.

هذه النصوص ليست سوى نتاج عمل عشرة باحثين وعشرة كتّاب من المتوسط هي المغرب وتونس ومصر ولبنان وتركيا واليونان وأسبانيا وفرنسا وألمانيا مدة سنتين لاستكشاف متخيّل هذه الجماعة أو تلك؟ الروابط الذهنية الماثلة، والأصداء التي يوقظها ذكر هذا البحر حيث تلتقي ثلاث قارات، وثلاثة أديان كبرى وتنوّع قلّ مثيله من اللغات والثقافات: المتوسط كبحيرة سلام، أو، على العكس، كأفق لمواجهة محتملة؟ مكان انفتاح أو حد انطواء؟ قيم مشتركة أم احتدامُ للفروق؟ والتساؤل نفسه، من شأنه أن يثير الاهتمام أو الازدراء أو الحذر...

فرانكو كاسانو يدرّس الاجتماعيات في جامعة باري. ويكرّس أبحاثه لجنوب المتوسط. من بين إصداراته الأخيرة نذكر «الفكر الجنوبي».
فنشينزو كونسولو كاتب من أصل صقلي، أصدر روايته الأولى «جرح نيسان» في العام ١٩٦٣، يعيش في ميلانو حيث صدرت روايته «الزيتونة وذو اللون الزيتوني» في العام ١٩٩٤.



التاريخ
التار
معين
لأهل

ISBN: 9953-422-43-5

nrad
nauer-
ftung

T H A L A S S A